شوقي وحافظ

عاشا يتردّد اسماهما معاً زمناً ، تعترض حياتهما عواصف تنافس أحياناً ، وتمرّ بها نسمات صفاء أحياناً أخرى ، ولكنهما يشعران أنهما مكمّلان بعضهما بعضاً في أداء رسالة واحدة . وجّهتهما الى طريقها عرائس الشعر وطبيعة العصر .

وماتا في عام واحد ، بل لم تستوف الشهور الثلاثة تمامها بعد وفاة حافظ حتى كان شوقي قد انتقل الى جوار ربّه بعد أن رثى رفيق جهاده الشعريّ بأروع مراثيه ، وذلك منذ خمسة عشر عاماً ، كأنهما شعرا أنهما أدّيا رسالتهما ولن يستطيع واحد منهما أن ينهض بعد الآخر بعبء تلك الرسالة وحده بعد هذا الجهاد الطويل .

ولقد ترك كلٌّ منهما أثره في جيله ، كما ترك ذلك الجيلُ أثره في شعرها بحسب طبيعة كل منهما .

قضى شوقي زهرة حياته ناعم البال فكان لذلك أثر كبير في شعره الاول وفيما حفلت به دواوينه في تلك الحقبة حتى تخلّفت الايام وتغيّرت عليه فأُبعد عن مصر ، وهنا انتقل شعره نقلةً أخرى ، وتأثر بمؤثرات أخرى .

أما حافظ فقد قضى زهرة حياته على غير ما قضاها شوقي ، محروماً من أهله وعشيرته ثم محروماً من التقدير حتى استطاع أن يشقّ طريقه . وقد وجد حافظ الطريق التي كان يريد سلوكها الى القصر محفوفة بالعراقيل في حين هيّئت لشوقي ، فاتّجه بشعره ناحية الشعب ، وكان لهذا الاتجاه أثرٌ بارزٌ في شعره مال به الى التعلّق باللفظ المؤثر القريب دون المعنى المبتكر البعيد ليصل صوته الى أسماع الناس في حين اهتمّ شوقي بالمعاني مع عنايته بالجرس وراء القريب من اللفظ .

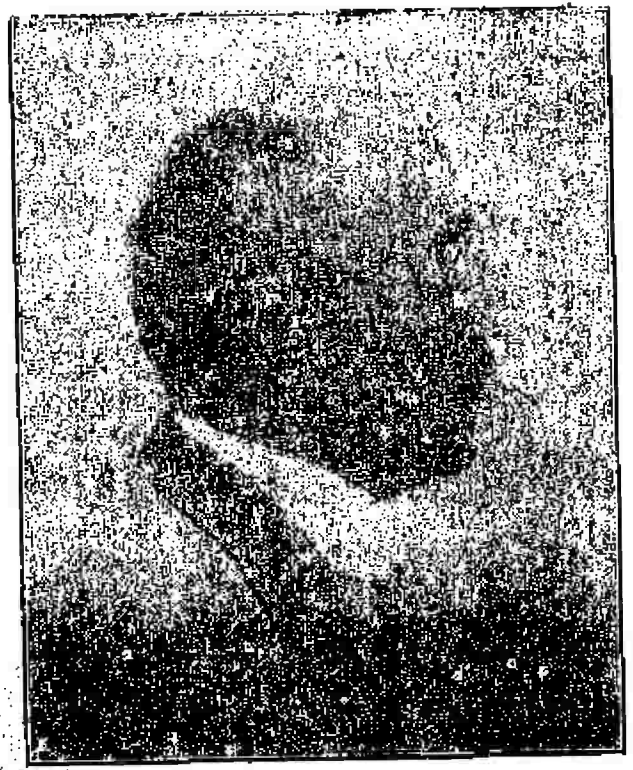

أحمد شوقي بك

حافظ ابراهيم بك

ولقد واتت شوقيًا الظروف فتهيأت له ثقافة عالية واطلاع بعيد على حوادث التاريخ ، وأكسبته رحلاته وعلاقاته برجال القصر ومعرفته بأساليب السياسة ومداوراتها وتياراتها ، ما لم يتهيأ لحافظ حيث شغلته حياته عن كسب المعرفة الواسعة إلا فيما كان خاصًا بالأدب العربي من مطالعاته في أمهات الكتب العربية فاكتسب محصولاً وافراً من فصيح القول ومفردات اللغة اختزنها عقله الباطن وكان يمده بها بين حين وحين ، ومن ذلك تبدو ديباجة حافظ قوية منذ نشأته الشعرية من ديباجة شوقي في بعض قصائده الأولى . لذلك اصطنع شوقي لنفسه طريقته في اختيار الكلمات الغريبة المهجورة ، كما قدمنا ، ليغطي هذا النقص .

* * *

على أن موسيقى شوقي التي وهبها كانت أقوى رنيناً من موسيقى حافظ ، ولذلك نجد الألفاظ العويصة التي كان يلجأ شوقي إليها كما يلجأ المترف الثري الى اقتناء التحف القديمة تستتر في بوتقة هذه الموسيقى القوية فتتحول الى حركة بعد جمود ، وحيوية بعد موات . ومن هذا كان شعره أميل الى الغناء من شعر حافظ حتى أن مراثيه لم تخل من موسيقى تجنح الى الرنين الراقص مما قد لا يتفق مع المناسبة كما في مرثيته لعلي أبي الفتوح .

غير أن شوقيًا ظل يقوّي ديباجته لتتفق مع قوة معانيه وأخيلته في حين لم يُعْنَ حافظ بالمعاني ليزيد ديباجته قوةً فتأخر عن شوقي في كثير من ضروب القول .

* * *

واستطاع شوقي أن يأخذ من آثار ثقافته لشعره ما ساعده على التفرد بالناحية التاريخية العجيبة في شعره ، والحكمة التي كان يبثها في ثنايا قصائده . وظهر أثر هذه الثقافات في أخريات حياته حيث اتجه اتجاهاً جديداً نحو فن جديد ، هو الفن القصصي الشعري .

أما حافظ فكانت ثقافته العربية ، وظروفه الخاصة ، حائلاً دون الالتفات الى ابتكار جديد ، وإن كان هناك نزوع في نفسه الى شيء من هذا بدا في هذه الأبيات التي يخاطب فيها الشعر :

ضعتَ بين النُّهى وبين الخيالِ يا حكيم النفوس يا ابن المعالي
ضعتَ في الشرق بين قوم هجود لم يفيقوا وأمة مكسالِ

قد أذالوك بين أنسٍ وكأسٍ وغرامٍ بظبيةٍ وغزالِ
ونسيبٍ ومدحةٍ وهجاءٍ ورثاءٍ وفتنةٍ وضلالِ

الى أن يقول :

آن يا شعر أن تفك قيوداً قيدتنا بها دعاة المحالِ
فارفعوا هذه الكمائم عنّا ودعونا نشمّ ريح الشمالِ

فهذه الرغبة لم تكد تظهر في نفس حافظ حتى خبت لانها لم تجد لها من عزيمته ما يدفعه إلى تغيير أساليب كتابته وموضوعات شعره ومحاولة تجديدها ، بل ظل يتناول ما كان يتناوله هو ويتناوله غيره من الشعراء ، وكان في استطاعته أن يجعل هذه الثورة في نفسه أثراً في شعره ، ولكنه لم يفعل ، ولعله حاول ولم تسعفهُ مواهبه — كما أسعفت مطرانًا — فوقف دون تقدم ، ولكن شوقيًّا حاول ، ولم يثنه شيء ، ولم يحُل النقد الذي وجّه اليه دون المضيّ في سبيله ولم يستطع صرفهُ عن محاولاته .

وكانت طبيعة شوقي التي تساعده على نظم الشعر حيث وجد من أسباب الاخذ بكثير من الألوان الجديدة لشعره في حين كانت طبيعة حافظ التي تؤثر الخلوة ، وتؤثر اللفظ على المعنى لم تهيئ له الوقوع على المعاني العابرة بالعين التي يقع عليها شوقي الذي لا تقف الحركة والضجيج دون تهيئه للقول . وفي هذا دليل آخر على سرعة التأثر والحساسية عند شوقي عنها عند حافظ .

* * *

غير أن شعر حافظ كان أقرب الى التعبير عن آلام المصريين وآمالهم من شعر شوقي الذي كانت عواطفه متجهة نحو العثمانيين تبعاً للسياسة التي كانت غالبة وقتئذٍ والظروف التي أحاطت به والاحساس بانتسابه اليهم ، فكان شعر حافظ السياسي صدى صوت مصر ، ينطق بعواطفها ويتجاوب مع صيحاتها . وكانت لحافظ جرأةٌ في تناول تلك الموضوعات لم تتهيأ لشوقي مثلها ، وهو الرجل الذي يجاري التيار الموافق لسياسة القصر وقتئذٍ .

على ان مجالس حافظ المرحة ورغبته في تقوية ملكة الدعابة والظرف في نفسه ليستطيع الوصول الى ما كان يتمنى من مجالس العظماء والكبراء كان لها أثرٌ بارزٌ في شعره حتى الوطني

منه، فقد كان يميل الى التفكه والتندّر كما يتجلى في بعض قصائده التي وجّهها الى كرومر على أثر حوادث دنشواي وإلى مندوب بريطانيا الذي خلفه وغير ذلك . في حين كانت الحكمة تغلب على شعر شوقي إذا مسّ موضوعات كهذه لأنه لم تكن له مثل روح حافظ المرح الطروب الظريف ، ولأن حياة القصر لوّنته بكثير من ألوان القيد والتحرّز ، فكان أميل الى الحكمة كما كان أميل الى المداراة . ومن ذلك لم تلقَ قصائده بين الشعب ما لقيت قصائد حافظ . ومن يستمع الى فكاهات حافظ ونوادره يجد فيها من الحكمة ما كان جديراً بأن يزخر بها شعره ، ولكنها كانت تجد المتنفس لها في تلك النوادر في حين تجد الباب موصداً أمامها في شعره إلاّ في النادر .

بيد أن هناك جانباً من شعر حافظ يهزّ من عظمة شعره السياسي ويسيء الى وطنيته التي كانت تحفزه قبل ذلك الى التعبير عن آلام المصريين ، وهي تلك القصيدة التي وجّهها الى السلطان حسين يدعوه فيها الى التعاون مع الانجليز ، وكذلك قصائده التي كان يوجّهها الى مندوب بريطانيا في مصر . وكان جديراً بحافظ أن يكون أكثر وطنية وشعوراً بالاباء أو يسكت ان لم يجد مجالاً للقول ، ولا يُحتج بأن الظروف كانت تدعو — وتضطر — الى مثل هذا القول ، لأن له من شعره السابق الذي وجهه الى ايطاليا والى دول الغرب ما كان جديراً بأن يملك عليه كل السُبُل فلا يفرّ الى طرق معوجة لا يسلم فيها من الشطط .

* * *

وقد استطاع شوقي بعد عودته من المنفى أن يتشرّب روح الشعب وأن يشاركه في عواطفه وميوله ، ويعالج هذه الناحية فوُفّق في ذلك ، وبرز شعره من تلك الآونة الى آخر حياته معبراً عن آمال مصر وآلامها وبخاصة في ظروفها الأخيرة ، بل لم يقف به الامر عند تناول الحوادث في مصر ، فتجاوز هذا الأفق الى حوادث الشرق يستلهمها فكان المترجم عن مشاعر الشرقيين ، وانتهز فرصة سكوت زميله فأطلق لخياله العنان وارتاد بفنّه نواحي متعددة من سياسية واجتماعية فأحسن فيها القول وأجاد ، على حين استسلم حافظ الى الصمت ، وكان في استطاعته — اذا فُرض أنه ضاق الشعر تحت ضغط قيود الوظيفة — أن لا يحرم

قبتاركه انزف عليها في نواحي أخرى كأن رسم صوراً للشقاء الذي يلازم الحياة في مصر ، وهو الذي خبره ولمسه وعاش فيه زمناً ليس بالقصير ، وكان من الاسباب التي دفعته الى نقل رواية البؤساء الى العربية .

***

أما وصف الطبيعة فقد برز فيه شوقي عن حافظ ، واذا كانت قصيدة حافظ عن رحلته الى إيطاليا التي يقول فيها :

عاصفٌ يرتمي وبحر يغيرُ أنا بالله منهما مستجيرُ

تعتبر لوحة رائعة صادقة التصوير زاخرة بالاحاسيس ، فإن مثل هذا اللون من الدقة في التصوير والتفرغ لإتقان الصورة قليلٌ عند حافظ خلافاً لكثرته عند شوقي ، فإن دواوين شوقي زاخرة بألوان تتفاوت قوة واقتداراً وفتنةً وتفنناً في مزج هذه الألوان بحسب تمكن الشاعر من فنه ، فالصور التي كان يرسمها خلال رحلاته الى الاستانة لا ترتفع الى مستوى الصور التي رسمها فيما بعد في قصائده عن النيل وغاب بولونيا وغير ذلك ثمّ زادت قوةً ونصوعاً وفتنةً وجمالاً في لوحاته عن لبنان وزحلة وبيروت وفي أبيات متناثرة خلال قصائده ، الأخرى في وصف الآثار.

***

على إننا اذا انتقلنا الى جانب من جوانب شعر الرجلين ، وهو الرثاء ، وجدنا شعر حافظ وافراً في هذه الناحية يكاد يستغرق نصف ديوانه — على حدّ قوله — ووجدنا في هذه الكثرة صدقاً في اللوعة والإحساس بالألم اتقد من رثيهم إذ كان حافظ سريع التأثر ، تركت له حياته الاولى وما قاسى فيها آثار حزن دفين في نفسه لا يكاد يحس بالموت يتخطف واحداً من معارفه حتى يحسّ بالألم عميقاً . ولعله كان يشعر في قرارة نفسه أن أصحابه ومن عرفوه وربطت بينه وبينهم صداقة متينة لم يعرفوه لجاهٍ أو مطمع ، وانما عرفوه لأنهم قدروه حق قدره ، فهو حين يفقد واحداً من هؤلاء إنما يفقد قلباً يزخر له بحب وعطف وقلباً تنطوي له على محبة وتقدير ، ولأن نفسية حافظ كانت ساذجة كل السذاجة ، طيبة كل

الطيبة ، يقبل على من يحبه كل الإقبال ويغضب سريعاً ، ولكن ما تبدو له في الأفق ظاهرة من مظاهر فرح أو أسى لصاحب أغضبه حتى ينسى كل شيء ليشارك صاحبه في فرحه أو حزنه ، ومن ذلك كانت نفسه صريحة واضحة لا غموض فيها بعكس نفسية شوقي الغامضة . فقد كان يحاول طمس الكثير من معالم نفسيته مصطنعاً الحكمة في كثير من المناسبات .

ولم يكن لشوقي مثل طاقة حافظ الحزينة الموروثة عن حياته الأولى لأن حياة شوقي كانت حياة ترف ، وكان أكثر من رثيهم أصحاب مناصب أو جاه ربطت بينه وبين بعضهم صداقات دعت اليها ظروف العمل أو الجوار أو الاتصال بالسراي أو كانوا من الذين أرادوا أن يصلوا بينهم وبينه طمعاً في نفع ، أو طُلب اليه رثاء واحد منهم فأجاب . ولا نحسُّ باللوعة في مراثيه إلاّ في قليل منها كرثيته لأمه ولمصطفى كامل ومحمد لطفي ويعقوب صرّوف وأمين الرافعي وفي أبيات قليلة من بعض قصائد أخرى ، وذلك للروابط القوية التي كانت بينه وبين هؤلاء من شدة تعلق ودوام صحبة وتجاوب فكر ، وللإحساس العميق المتبادل بينهم . والذي كان عاملاً من عوامل الاندماج بين حياة هؤلاء . لأن فيها من حياته أشياء أحسَّ أنه فقدها الى النهاية .

أما مراثيه الأخرى فكانت عنايته بتحسين الاطار التي توضع فيه صورة الفقيد أكثر من العناية بالصورة نفسها ، وكانت تتردد في معظم هذه المراثي معاني واحدة لأنه كان يلجأ الى الحكمة ليستر ضعف الاحساس بالفجيعة .

ومن هنا كان لمراثي حافظ من القوة ما لم تكن لبعض مراثي شوقي ، ولأن حافظاً كان يتفجع بكل شعوره ، وكان الألم ينصبُّ في نفسه انصباباً كما يقول في رثيته لسعد .

***

وهناك وجهُ اختلاف بين حافظ وشوقي ، ذلك ان الأخير عند ما تخلص من تقاليد وظيفته وقيودها — أو خلصته الأقدار منها — وارتحل الى المنفى بعث فيه هذا الخلاص تحرُّراً من كل قيد ، وأكسب التنقل روحه وجسمه طلاقة وانطلاقاً ، فكان في كهولته لا يستقرُّ في مكان كالطائر اندفع يغرّد ، ويلوّن في تغريده ، في حين قيدت الوظيفة حافظاً فسكت زمناً عن التغريد ، ولم يكن لجسمه وروحه من التنقل الا ما بين مقرّ عمله ومجالس

أنسه وصحابه تأثر ذلك فيه عند كهولته فسكت وخبّت قيثارته على النقيض زميله الذي مات وهو لم يترك قيثارته ولم يهجر عرائس شعره.

فالحيوية كانت في شوقي مدخرة بينا استنفدها حافظ فلم تواته في أخريات حياته ، وبذلك فقد شعره الأخير تلك القوة التي كانت تزخر بها أشعاره الأولى .

***

واتفق الاثنان — شوقي وحافظ — في ظاهرة تبدو في ناحية من شعرها تلك هي برود العاطفة وجفافها نحو المرأة ، وعدم التأثر بها تأثر الغزلين الحقيقيين ، فشعر شوقي الغزلي وإن كان وافراً عن شعر حافظ الغزلي الشحيح لا يمتاز عنه من تلك الناحية بشيء فهو عند هذا تقليدي كما هو عند ذاك ، لا روح فيه ولا حرارة ، فهو وصفٌ لكلام عذب جميل . على أن الموسيقى القوية التي امتاز بها شوقي — كما قلنا — كانت تمدُّ بعض أشعاره في هذه الناحية وبخاصة ما نظمه بعد فوات الشباب بما ينقصه العاطفة المتقدة . وكثير من شعره الذي لا يمتُّ الى الغزل بصلة يغنّى الآن ، لأن الروح الغنائية فيه كانت متغلبة وربما أمكن التغني بكثير من شعر مراثيه .. ولن يخدعنا شعر حافظ في الناحية التي نتكلم عليها كما يخدع شعر شوقي لأن شعر حافظ خالٍ كل الخلوّ من حب المرأة . أما شعر شوقي فقد يخدع بعض الناس أول وهلة ، ولن ينهض حجةً قوله في قصيدته الثانية عن لبنان التي افتتحها بالغزل حيث قال :

فازورَّ غضباناً وأعرض نافراً حالٌ من الغيد الملاح عرفته

فهذا التعبير لا يدلُّ دلالة صريحة على دراسة المرأة عن تجربة ومعرفة ، ولكن عن طريق قراءة أو سماع لأن شباب الشاعر كان بعيداً عن التأثر بالمرأة تأثراً حساساً ، وتبدو ألوانه باهتة للباحث الفاحص ، ولم تظهر في آثاره تلك الحرارة التي يحاول أن يثيرها في شعره في الطور الأخير ، فكيف تجيء بعد أوانها ؟

لقد كان شوقي سريع التأثر عن طريق قراءاته وكانت تنطبع على صفحات ذهنه من تلك القراءات صور عديدة لشعراء عديدين ، فهو يقرأ مثلاً لابن زيدون مقطوعته .

وَدّع الصبر محبٌّ ودّعك ذائعٌ من سرّه ما استودعك

ويعجبه منها موسيقاها وروحها الغنائية التي هيأتها لذلك فيقول :

رُدّت الروح على المضنى معك أحسنُ الأيام يومٌ أرجعكْ

أو يقرأ للحصري القيرواني :

يا ليل الصبّ متى غدُهُ أقيام الساعة موعدُهُ

فيعارضه بقوله :

مضناك جفاه مرقده وبكاه ورحّم عُوّدُهُ

ويتابعه في هذه المعارضة كثير من شعراء عصره .

وقد يبدو أن ظروف شوقي التي كانت تدعوه الى المحافظة على مكانته في القصر كانت من الأسباب الداعية الى المحافظة أيضاً على عدم اتصاله بالمرأة أو اذاعة شيء من التعلق بها تصنعاً للوقار كما في قوله :

لك أن تلوم ولي من الأعذار أن الهوى قدَرٌ من الأقدارِ

ما كنت أسلمُ للعيون سلامتي وأبيح حادثة الغرام وقاري

وفيها يصف رؤيته لحسناء من حسان الاستانة مرّت به وهو على الخليج فقال :

مرّت بنا فوق الخليج فأسفرت عن جنّةٍ وتلفّتت عن نارِ

في نسوةٍ يوردن من شئن الهوى نظراً ولا ينظرن في الإصدارِ

عارضتهن وبين قلبي والهوى أمرٌ أحاول كتمه وأداري

ولكن أيّ وقار يحول بين الشاعر وبين أن يصدح بتباريح قلبه ، وأيّ تقاليد تمنع حتى أصحاب الحكم من أن ينزلوا على حكم الهوى ؟

لقد سافر شوقي الى فرنسا في مقتبل شبابه الفوّار ، وعاش هناك فترة من الزمن . واذا قدّرنا البيئة التي خلفها شوقي — بيئة المحافظة التي لم تكن للمرأة فيها ما لها الآن من ظهور بألوان الفتنة ، وقدّرنا الى جانب ذلك تلك البيئة التي تحوّل اليها ، وفيها ما فيها من ألوان الفتنة الظاهرة دون خمار ، واللاعبة دون ستار ، والمتفتحة عن جنّات تتدلع فيها النار ، كان لنا أن نقول إنه كان على شوقي أن يهتف ويهتف من أعماق نفسه في شبابه هتاف الروح

البحتري بلهب هذه النشأة . فهل كان لشبابه هناك — وهو الشاعر الفرد الذي لم تكن له من القيود ما يمنعه من البوح بآثار المرأة في نفسه في تلك الحقبة ، حقبة القلب — ألوان شعرية ، بارزة فيها آثار المرأة كما تظهر عند شعراء الغزل الحقيقيين ؟

هذا ما نحاول الكشف عنه .

إن في الجزء الثاني من ديوانه قصيدتين، واحدة عن « باريس » والأخرى عن « غاب بولونيا » وهاتان القصيدتان كتبتا بعد فوات عهد الشباب بزمن بعيد كما يظهر من خلالها، ما في ذلك شك . فأما الاولى فكل الحديث فيها منصبٌّ على تلك المدينة الساحرة ، ولا يمكن لشاعر أو غير شاعر أن يذكر باريس دون أن يذكر غيدها ولو كان من المتقشفين .

وشوقي يعرّج على ذكر الهوى في تلك المدينة الساحرة فيقول هذه الابيات :

يا مكتبي قبل الشباب وملعبي ومقيل أيام الشباب النُّوكِ
ومراح لذّاتي ومغداها على أفق كجنّات النعيم ضحوكِ
ومجاءَ وحي الشعر من متدفق سلس على نول البداه محُوكِ

فالذي يصرّح بحمق الشباب في طوره حين يقول « ومقيل أيام الشباب النُّوكِ » لا يستعصي عليه أن يصرّح بأكثر من ذلك .

* * *

وأما قصيدته « غاب بولونيا » فهي ذكرى عاودته بعد الشباب على أثر زيارة لهذا المكان، فبعثت فيه تلك الزيارة ذكرياتٍ قديمة ، ولكن أين أثر هذه الذكريات القديمة في شعره ؟ إنه يقول :

يا غاب بولونٍ ولي ذممٌ عليـك ولي عهودُ
زمنٌ تقضّى للهوى ولنا بظلّك ، هل يعود ؟
حلمٌ أريد رجوعه ورجوع أحلامي بعيـد
وهب الزمانَ أعادها هل للشبيبة مَنْ يعيد ؟

ثم بعد أن يصف ما كان له من ليالٍ هناك حديثها الوتر والعود، ويأخذ من صور الطبيعة

مادة لقصيدته ، وقد مرى في فضاء هذا المكان ، والناس نيام والكون هاجع ، يتنقل من مكان الى مكان

حتى إذا دعت النوى فتبدّد الشمل النضيدُ
بتنا وما بيننا بحرٌ ، ودونَ البحر بيد
ليلي بمصر وليلها بالغرب ، وهو بها سعيد

فهذه القصيدة وليدة الذكرى التي خطرت ، وهو يمرّ بهذا المكان ، وقد ودّع شبابه ، ومكانٌ كهذا لا يمكن يستعيد فيه الإنسان ذكريات شبابه إلاّ ويعطف ناحية الهوى سواء أكان لهذا الهوى أثر في نفسه أم لم يكن ، وسواء أعبّ من كؤوس الهوى كما يعبُّ الشعراء فتبقى النشوة خالدة أم صبّ منها كما يعبُّ كل إنسان فتمضي النشوة سريعاً ولا تترك أثراً . وإلاّ فأين أثر تلك التي خلفها هناك عند عودته الى مصر ؟

أين أثرها في شعره في مرحلة الشباب ؟

لا شيء ! ولعلّ الغموض الذي كان يحيط بنفس شوقي كما أسلفنا القول في ذلك ، والذي كان يدفعه الى اصطناع الحكمة ، كان يدفعه الى أن يقول شيئاً كهذا في الغزل ليستر به ضعفه في هذه الناحية .

***

لقد عاش هذان الشاعران زمناً ليس بالقليل يصطخبان بضروب من القول في ضروب من ألوان الشعر السائدة في ذلك الجيل ، وكانا يختلفان في أهياء ويتفقان في أهياء ، ويتفرد واحد منهما آناً بناحية ويتفرد الآخر آناً بناحية أخرى ، ولكنهما — لا شك في ذلك — كانا يشعران في صميم نفسيهما بأن هذا لا بد منه لذاك ، وان التنافس الذي كانت تخلقه بعض الظروف بينهما ضرورة لكيانهما حتى انتقلا من هذه الدار ، وقد تركا فيها أثرهما للأجيال تروة تفحص وتمحص بيد النقد البريء ، بعد أن نفضا أيديهما من الدنيا ، ونفض الناس أيديهما من الرياء لهذا أو ذاك .

مصر كامل الصيرفي